تأثير الأقاليم الإسلامية فى الشعر والدين

للدكتور شوقى ضيف

— ١ —

من المعروف أن العرب كانوا كلما فتحوا أمة سياسياً ودينياً فتحوها أيضاً لغوياً وأدبياً ، فالدولة العربية كلها استخدمت لغة الفاتحين فى التعبير عن عقولها وقلوبها ، لم تتخلف عن ذلك أمة ، إذ كان نهر اللغة العربية من العنف والقوة بحيث يرفع كل الحواجز والعوائق الجنسية والدينية التى صادفها فى كل الأقاليم الإسلامية .

وهذا الوضع للعرب ولغتهم لا يزال يأخذ بألباب الغربيين ، فهذه أممهم وحكوماتهم تحاول جاهدة أن تحدث مثل هذا الانقلاب فى بعض الشعوب التى تستعمرها ، فيقصر الانقلاب وتقصر المحاولة ، وتبوء ، وخاصة فى الشعوب العربية ، بالفشل الذريع . وكلنا نعرف محاولات فرنسا فى الجزائر ، ونقلها هناك لكثير من سكانها واستخدامها لوسائل التربية والتعليم الحديثة . ومع ذلك كله لم تصب شيئاً من النجاح الذى أصابه العرب فى فتوحهم .

ولا ريب فى أن ذلك النجاح يعد معجزة القرآن الكريم الثانية بجانب معجزته الأولى ، إذ جمع أولا العرب فى جزيرتهم على دين سماوى واحد ، ثم جمع ثانياً الشعوب المفتوحة على لسانه العربى المبين . وقد يرجع ذلك إلى أن هذه الشعوب لم يكن لها أدب رائع على نحو ما كان القرآن والشعر العربى ، وقد يرجع إلى أن البلاد المفتوحة اعتنقت الدين الإسلامى .

وسواء أكان السبب هذا أم ذاك ، فما لا جدال فيه أننا لا نمضى فى القرن الثانى للهجرة حتى تصبح العربية لسان أهل إيران والموصل والعراق والشام ومصر والمغرب ، ويتكلمها ساميون وحاميون وآريون ، بل يتخذونها أداتهم لتسجيل حياتهم الفكرية والوجدانية . واندمج فيها كل التراث الفارسى والهندى واليونانى

الذى لقيته فى طريقها بجميع خصائصه ، وتمثلته تمثلا رائعاً بحيث أصبحت لغة الحضارة والمدنية فى العصور الوسطى ، وبحيث كانت جامعة قرطبة فى أسبانيا المنارة الإسلامية المتوهجة وسط ظلام أوربا المخيم على العقول والأذهان .

ونهض بهذه الحضارة والمدنية العرب والموالى جميعاً ، وكان للأخيرين عمل واسع فى نهضة الدراسات الدينية والعلمية . ونهضوا نفس النهضة بالأدب ، بحيث لم يعد فيه عربى ومولى ، فقد أصبحوا لا يقلون عن العرب ذلاقة لسان وفصاحة بيان ، بل أخذوا يتفوقون عليهم .

وقلما نسمع بكاتب مشهور أو شاعر ممتاز فى القرن الثانى للهجرة إلا ويكون منهم ، فعبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هرون ، كل هؤلاء الكتاب البارعين من الفرس ، وبشار وأبو نواس وأبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية ومسلم وابن الرومى ، كل هؤلاء الشعراء المبدعين من الأجانب ، فيهم الفارسى والنبطى والرومى .

فالعربية لسان الجميع ، وهى لغة الحياة العقلية والوجدانية ، يتخذها سكان الدولة العربية أداة تعبيرهم فى جميع شئونهم العلمية والأدبية . وكان للفرس فى أول الأمر القدح المعلى فى ذلك ، إذ أقبلوا على تعلمها بحماس منقطع النظير ، وتصادف أن العباسيين اتخذوا عاصمتهم فى العراق بالقرب منهم ، واتخذوا منهم الوزراء والكتاب ، فانبعثوا من ورائهم يحققون لأنفسهم أمجاداً فى الأدب العربى . وتلا الفرس غيرهم من الأمم والشعوب الإسلامية ، فشاركوا فى هذا الأدب بشعره ونثره ، وبذلك كان أدب الأقاليم الإسلامية كلها ، شرّقت أو غرّبت ، وتقاربت أو تباعدت .

— ٢ —

وكل شىء كان يؤكد أن تفترق هذه الأقاليم فيما بينها ، وأن يظهر تأثير بيئاتها فى الأدب العربى بنوعيه من شعر ونثر ظهوراً بيناً ، بل ظهوراً من شأنه أن يوجد حواجز بين آداب الأقاليم المختلفة . فيختلف أدب كل إقليم ويتميز بما توجهه طبيعته الجغرافية ووراثاته الجنسية والثقافية والروحية .

غير أن من ينظر نظرة فاحصة فى الأدب العربى وأمثلته التى نشأت له فى الأقاليم المختلفة يجد هذه الأمثلة تلتقى وتتشابه ، بل تكاد تتحد ، لسبب بسيط ، وهو أن أصحاب هذه الأقاليم لم يشعروا بانفصال فى أنفسهم ، إذ حاولوا — جهدهم — أن يتصلوا بغيرهم ، وبالإطار العام لهذا الأدب الذى غزاهم وفتح عقولهم وقلوبهم لرواسبه المعنوية والتصويرية .

ونحن لا نستطيع أن نفهم هذه الظاهرة من التشابه الشديد بين آداب الأقاليم الإسلامية وشعرها خاصة إلا إذا اطلعنا على الطريقة التى كان يصطنعها الكاتب أو الشاعر كى يحسن فنه . وهى طريقة اصطلحت عليها كل البيئات ، وذلك أن من يريد أن يكون أديباً كاتباً عليه أن يقرأ نماذج الكتاب الأولين من أمثال عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وابن العميد ، حتى يعرف أساليبهم وخصائصهم ، ثم يحاكيهم محاكاة دقيقة . وكذلك الشأن فى الشعر ، فمن أراد أن يكون أديباً شاعراً عليه أن يقرأ نماذج بشار وأبى تمام وأبى نواس والبحترى والمتنبى وأضرابهم ، حتى يقف على أساليبهم ودقائق هذه الأساليب ، ثم يقلدها تقليداً يوشك أن يكون طبق الأصل .

وبذلك كان الشاعر يرتفع عن إقليمه ويتخلص منه جادًّا ومن وراثاته وظروفه المختلفة ليحقق لنفسه نجاحاً فى عالم الشعر العربى ، وحتى يثبت مهارته وأنه يجرى فى نفس الدروب التى سلكها أسلافه . ومن هنا لم تُعْطَ فرصة حقيقية للأقاليم كى تؤثر فى هذا الشعر التأثير المنشود الذى يقيم حدوداً وفواصل بين البيئات المتغايرة وما تنتج من شعر وفن .

وكأنما رُبِط العالم العربى كله بأسلاك فنية واحدة ، فأى اهتزاز فى منطقة تشعر به المناطق الأخرى ، وسرعان ما تتجاوب معها . ويخيل إلى الإنسان كأنما تعاهدت الأقاليم الإسلامية على أن يكون شعرها متشابهاً لا يتميز فيه إقليم من إقليم بشىء معين .

ونشعر شعوراً واضحاً أن الشعر العربى أصبح صناعة ، وهى صناعة تتداول بين الأقاليم الإسلامية على نحو ما تتداول صناعة الفقه أو على شاكلة ماتتداول صناعة النحو ، فهناك مثل وتقاليد لا يعدوها الشعراء إلا على نحو هؤلاء

الفقهاء والنحاة فى مؤلفاتهم . فهذا مثلا مذهب مالك يدرس فى الحجاز إقليمه الأصلى ، ويدرس فى مصر والمغرب والأندلس ، وتؤلف فيه عشرات الكتب ، وكل إقليم يقدم نشاطه ولكن لا تظن أن المذهب يختلف من إقليم إلى إقليم . قد تظهر بعض آراء جديدة ، ولكنها فى فروع قليلة . وهذا نفسه نلاحظه فى النحو وكثرة ما ألف فيه شرقاً وغرباً .

وكذلك الشأن فى الشعر العربى ، فالعراقيـــون والفرس والخراسانيون والشاميون والمصريون والمغاربة والأندلسيون والصقليون ، كل هؤلاء يعملون فيه ، ولكن لا تظن أنه يتميز ويتفاصل بين هذه الأقاليم أو بين هذه الأمم والشعوب فصورته العامة واحدة ، والتمايز أو التفاصل إنما هو فى الفروع وفى بعض المعانى الجزئية .

وربما كان إقليم العراق أنشط الأقاليم وخاصة فى القرون الثانى والثالث والرابع ، إذ أخرج نخبة ممتازة من الشعراء ، ولكن هذه النخبة لم تلبث أن حولت الشعر إلى نماذج أصبحت مثله العليا التى لا يصح للشعراء أن يخرجوا عليها أو يشذوا عنها .

فأيان شرقت أو غربت لا تجد إلا هذه المثل وإلا أبا نواس وبشاراً والبحترى ومسلما وأبا العتاهية وأبا تمام وابن الرومى وابن المعتز والمتنبى . فهم يدرسون فى كل إقليم ، وهم الأصول التى لا ينبغى للشعراء أن يتجاوزوها أو يعدلوا عنها .

ويشعر الإنسان أن قصائد هؤلاء الشعراء وأضرابهم أصبحت مقدسة ، فلا يصح الانحراف عن صورها يميناً ولا شمالا ، ولا يصح لبيئة أن تثور عليها ، وتستخرج من لدن ضميرها وروحها وحياتها الواقعة صورة جديدة .

ولذلك كنت تقرأ فى كتاب مثل « جريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الأصفهانى ، وهو موسوعة شعرية للأقاليم العربية المختلفة فى القرن السادس للهجرة ، فلا تجد حين تقرؤه صفات خاصة يمكن أن تضيفها إلى إقليم معين كأنما انعدمت الخصائص والصفات والفروق. ونعجب نحن الآن حين نجد هذا التشابه والتلاحم ، ولكن عجبنا يزول حين نعود إلى هذه الحقيقة ، وهى أن

هؤلاء الشعراء فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه لم يشعروا بالفوارق الإقليمية ولا بالمشاعر الوطنية على نحو ما نشعر نحن حديثاً ، بل شعروا أنهم يعيشون فى إقليم واحد وعالم واحد وبمشاعر وإحساسات وصور ذهنية وخيالية واحدة .

ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يتبين شخص خصائص مميزة واضحة لإقليم إسلامى تفصله عن الأقاليم الأخرى ، لأن العالم العربى لم يتفاصل فى العلم ولا فى الأدب شعره ونثره . تفاصل فى السياسة ، وتكونت فيه وحدات سياسية ، ولكن هذه الوحدات لم تنته بالمسلمين إلى الشعور بأنهم يعيشون مستقلين بعضهم عن بعض فى الشئون الفكرية والفنية .

ولا ينتهى الإنسان من قراءة الجريدة أو قراءة أى كتاب يضم الأقاليم الإسلامية وشعرها مثل اليتيمة للثعالبي والمغرب لابن سعيد حتى يقف على هذا التشابه الفنى لصور الشعر العربى ، وحتى ييأس أن يكون هناك خلاف حقيقى بين إقليم وإقليم .

ولا يكاد يظفر بميزة خاصة لبيئة حتى يجدها شائعة فى البيئات الأخرى ، فمن المشهور مثلا أن شعر الطبيعة نما فى الأندلس حتى غدا ميزة لها ، ولكن لا نقرأ هذا الشعر حتى نجده لا يختلف فى شىء عن شعر المشارقة من أمثال ابن الرومى والصنوبرى . وقل ذلك فى الشعر الصوفى ، فهو منتشر فى كل الأقاليم ، ولا فارق فيه بين إقليم وإقليم .

وقد تجد نوعاً من الابتكار كبديع أبى تمام ، ولكنك لا تلبث أن تجد نقاد العرب أنفسهم يردونه إلى مسلم بن الوليد ، بل إلى بشار وأبى نواس ، بل إن ابن المعتز يرده فى كتابه « البديع » إلى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم .

وتكثر مصر بسبب مزاجها الفكه من التورية واللعب بالألفاظ ، فينتشر ذلك عنها ، وتشاركها فيه كل البيئات الإسلامية ، حتى الأندلس نراها تتجه هذه الوجهة عند ابن خاتمة معاصر لسان الدين بن الخطيب .

فليس فى الشعر العربى موضوع يختص به إقليم ولا لون فنى من ألوان البديع ينفرد به إقليم ، وإنما الذى فيه التقارب والتماثل ، حتى ليشبه مصنعاً كبيراً

يدخله عمال محترفون ، فيجدون قوالب مهيئة ، فيصبون فيها ما يسمى شعراً ، وهو شعر يتحد فى أكثر صوره وأطرافه ، لأن من طبيعة القوالب المهيئة أن تخرج أعمالا متشابهة إن لم تكن متحدة تمام الاتحاد .

وكل ذلك معناه أن عوائق قوية حالت بين الأقاليم الإسلامية وبين أن تؤثر فى الشعر العربى تأثيرات عميقة ، وهى ترد على الأقل إلى هذا الظاهر ، وهو أن الشعراء اصطلحوا فيما بينهم على صور فنية خاصة ، وساقوا شعرهم كله فى هذه الصور ، لا يحيدون عنها ولا ينحرفون .

واقرأ فى كتاب الذخيرة الخاص بشعراء الأندلس لمؤلفه ابن بسام فستجد المؤلف يهتدى فى التعليق على شعر كل شاعر بالتعرف على مثاله المشرقى الذى يقلده ، فهذه القصيدة صيغت على نمط قصيدة لأبى نواس ، وتلك نظمت على نمط قصيدة للبحترى أو لأبى تمام أو ابن الرومى أو المتنبى أو لأبى العلاء ..

والمعانى الجزئية للشعراء يتعقبها بنفس الطريقة ، فهذا المعنى مسروق من فلان أو فلان من العباسيين أو من سبقوهم ، وكأننا بازاء ساقية جحا وما قيل من أنها كانت تأخذ ماءها من البحر ثم تدفعه ثانية إلى البحر . وما البحر إلا الشعر العربى ، وما الساقية إلا الأقاليم التى دار شعرها على التقليد للنماذج السابقة . ويضيق التقليد ويتسع حسب اختلاف الشعراء فى أمزجتهم أو فى عقولهم ، ولكنهم على كل حال يعدون جميعاً مقلدين ، يتعبدون النماذج التى تقدمتهم ، ويصوغون شعرهم عليها صياغة ، وكأنما جفت الينابيع التى يمكن أن تمدهم بضرب من الفردية يدفعهم إلى شىء من الاستقلال والانفصال .

— ٣ —

وربما كانت الأندلس أسبق الأقاليم إلى محاولة استلهام بيئتها وابتكار صورة جديدة فى الشعر العربى على نحو ما هو ذائع مشهور عن الموشحات والأزجال . ولكن هذا نفسه ينبغى أن نحتاط فيـــه حين نقوله ، فان من يقرأ الموشحات يجدها تستمد فى مادتها ومعانيها من الشعر العربى العام ، فالشاعر فيها يتغزل أو يمدح أو يهجو أو يصف الطبيعة أو يسوق خمرية بنفس الرواسب الفنية المألوفة لنا فى الشعر العربى .

وكأنما التجديد الحقيقى فى الموشحات يقتصر على الوزن والصياغة الموسيقية فهى تتألف من مراكز وأغصان ، تهيىء لأن يكون هناك مغن وجوقة ترد عليه ، وهى تجدد فى الأوزان بما تزيد فى التفعيلات أو بما تحذف ، ولكن هذا كله تجديد فى الشكل تحت تأثير الغناء والموسيقى . أما الجوهر فلا يختلف فى شىء عن جوهر القصيدة العربية من حيث الخواطر والمعانى والصور .

ونحن لانعدم أن نجد صورة طريفة أومعنى مبتكراً فى موشحة من الموشحات كما هو الشأن فى القصيدة الإقليمية ، فلم يقفل باب الاجتهاد على الوشاحين والشعراء ، ولكنه تخاذل وتضاءل ، ولم ينفتح إلا لبعض صور ومعان قليلة .

وهى لا تعد شيئاً من حيث التعبير عن البيئات ، بل إنها جهود فردية محدودة ، فالفنانون لا يزالون مشدودين إلى مثل الفن القديمة ، أو كما كانوا يقولون ، إلى عمود الشعر العربى وأصوله ونماذجه .

ومعنى ذلك أن الشعر العربى رغم ما ظهر فيه من الموشحات الأندلسية له روح واحدة تسيطر عليه ، لم يستطع خلاصاً منها ولا انفكاكاً عنها . وهذه الروح هى التى كانت تصل بين الشعراء فى البقاع والأمصار المتباعدة ، بحيث إذا ظهر أى لون جديد أو اتجاه جديد لم تلبث الأقاليم الأخرى أن تجاريه أو تقلده ، وقد تبذ فيه الإقليم الأصلى كما حدث فى الموشحات ، فقد ظهرت فى الأندلس ، ولم يلبث ابن سناء الملك المصرى أن وضع لها أصولها فى كتابه « دار الطراز » ونظم موشحات لا تقل روعة عن موشحات نظرائه فى الأندلس ، وتعاقب من بعده على التوشيح المصريون والشاميون والعراقيون يحسنون ويجيدون ويتقنون .

وكل ذلك يجعلنا نقول إن مادة النسيج فى الشعر العربى كانت أقوى من أن تنزع عنها الأقاليم مقوماتها ومكوناتها . وقد يكون هذا راجعاً إلى شىء من المحافظة فى اللغة العربية ، أو قل إنها تميل إلى المحافظة الشديدة ، فانطبعت الأقاليم الإسلامية فى شعرها وفنها بهذا الطابع ، وأصبح من غير الممكن أن تنشأ اتجاهات ومذاهب جديدة تصيب الشعر بثورة عنيفة على نحو ما نعرف فى المذاهب الغربية الحديثة .

على كل حال لم تخرج الموشحات عن عالم الشعر العربي المألوف للمشارقة إلا من حيث الوزن والصياغة ، وسرعان ما تناولتها الأقاليم الأخرى وحاولت أن تتفوق فيها على الأندلس ، وأهم الأسباب فى أنها تمكنت من ذلك فعلا تملكها للمادة الأساسية التى تكونها ، ونقصد المعانى والخواطر وقوالب التشبيهات والاستعارات وكل هذه الرواسب التى تكون القصيدة العربية فهى نفسها التى نصادفها فى الموشحة . ومن هنا أصبحت الموشحات صورة عامة من صور الشعر العربى لا صورة محلية خاصة ببيئة معينة . أنتجتها الأندلس ولكن سرعان ما ساهمت فيها البيئات الأخرى وزاحمت بيئتها الأصلية .

ونستطيع أن نلاحظ نفس الملاحظة فى الأزجال ، ومعروف أنها لا تتألف من اللغة الفصيحة ، وإنما تتألف من اللغة العامية ، وقد اخترعها الأندلسيون على لسان ابن قزمان . وسرعان ما انتشرت فى العالم الإسلامى كله ، حتى ليقول ابن سعيد صاحب المغرب إنه سمع أزجال ابن قزمان « مروية ببغداد أكثر منها بحواضر المغرب » .

ولا ريب فى أن الذى أتاح للأزجال الأندلسية الانتشار إلى أقصى الشرق إنما هو هذه المادة التى نشير إليها والتى كانت تتألف منها ، إذ كانت تنتزع انتزاعاً من مادة الشعر العربى فى المعانى والأخيلة . وبذلك أمكن أن تدور على الألسنة فى الأقاليم الإسلامية الأخرى وأن يفهمها الناس ويتداولوها فيمابينهم. فحتى الأزجال لا تنفصل فى جملتها عن الشعر العربى ، بل تستمر فيها طوابعه بجانب الألفاظ العامية البلدية .

على أن استخدام كل إقليم لعاميته فيها جعلها أقرب إلى أن تمثله من الشعر الفصيح ، لأن الزجالين حاولوا أن يصوروا واقع حياتهم بأوسع مما حاول الشعراء إذ لم يكونوا مقيدين مثلهم بنماذج معينة يرتفعون فى تقليدها عن أوساطهم وعن عصورهم وبيئاتهم .

وبذلك كانت الأزجال أقوى وأوضح من الشعر فى تمثيل البيئات الإسلامية وما جرى فيها من حياة سياسية واجتماعية . وحتى مزاج الشعب نفسه وخصائصه نستطيع أن نلمحها فى الأزجال بأجلى وأحد مما نلمحها فى الشعر الفصيح .

ويتضح ذلك بالرجوع إلى الأزجال فى إقليم مثل مصر ، فمن الظواهر التى تميز هذا الإقليم ظاهرة الفكاهة ، ولها صورة معروفة فى الشعر الفصيح هى التورية ، ولكنها صورة محدودة جداً ، وقد شاركت فيها الأقاليم الإسلامية بحكم اندماجها بل فنائها بعضها فى بعض .

وإذا تركنا الشعر المصرى الفصيح الذى لا يكشف لنا كشفاً واضحاً هذه الظاهرة إلى الأزجال وجدناها مجسمة عند زجالين كثيرين . ويكفى أن نرجع إلى ديوان « نزهة النفوس ومضحك العبوس » لابن سودون الذى كان يعيش فى عصر المماليك لنرى كل شىء فى مصر يتحول عنده إلى هزل وفكاهة ، وكأنه أراجوز ، تشد أسلاكه ، فيتحرك حركات مضحكة ، والديوان كله ضحك ودعابة .

وكان فى الجيل الماضى الشيخ محمد النجار صاحب مجلة الأرغول زجالا من الطراز الأول وتعرض فى أزجاله للحياة المصرية المعاصرة له وللمرأة المتمدينة حينئذ والسفور ولكل ما وقع تحت عينه وأجراه فكاهة ومزاحاً .

ولعل فى هذا ما يدل على أن ما استعصى على الأقاليم من التأثير العميق فى الشعر العربى وصلت إليه عن طريق آخر هو الأزجال ، وما يزال الفرق بعيداً فى عصرنا بين أن نقرأ للزجالين والشعراء ، فدائماً يتصل الأولون بالحياة الواقعية من سياسة واجتماع اتصالا مباشراً بخلاف أصحاب الشعر الفصيح ، كأن هذا الشعر لا يزال يستعصى على تمثيل بيئاته وأقاليمه إلا ما جاءه من إمدادات غربية ، وتوجيهات لا هى إقليمية ولا شرقية .

شوقى ضيف